التقديم والتأخير عند علماء المعاني

إعداد
ياسر عبد الحميد مدني أحمد

ملخص البحث

يعد التقديم والتأخير متغيراً أسلوبياً في اللغة؛ لأنه عدول عن القاعدة العامة وذلك بتحويل الألفاظ عن مواقعها الأصلية لغرض يتطلبه المقام، فهو من الأركان التي يقوم عليها علم المعاني، لما له من وثيق الصلة بقصد المتكلم، وحال المخاطب، والمقام الذي يلقى فيه الكلام، والتقديم والتأخير البلاغي وثيق الصلة بقرينة الرتبة في النحو، ولكنه لا يمس الرتبة المحفوظة، لأنها محفوظة لا تختلف عليها الأساليب، فعبد القاهر الجرجاني أكسب التقديم والتأخير نظرة جديدة وبعدا أسمى، وحوله من الدرس النحوي إلى الدرس البلاغي، وشمل عنده وحدة الموضوع، بعد أن كان يدرس بصورة متفرقة في كتب الذين سبقوه، أو كان ينظر إليه على أساس أنه يؤدي إلى التعقيد المعنوي للكلام، ومن المعلوم أن البلاغة تستند إلى الأساس النحوي ولا تنفصل عنه، وتعد سلامة الأساس النحوي واستقامته شرطا واجب التحقق لإقامة الدرس البلاغي؛ لأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وإنّ تقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباطا في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملا مقصودا يقتضيه دقة غرض بلاغي أو داع من دواعيه، تُبيح للمتكلم التوسع لإبراز الملكة التي يمتلكها في سياقات مختلفة، وفيها من الشجاعة ما يُمكنه من مخالفة مظهر من مظاهر وقرائن المعنى دون خشية اللبس واعتمادا على قرائن أخرى تفي بالغرض.

الكلمات الافتتاحية: التقديم التأخير المسند المسند إليه المقام

Research Summary
Grammarians were concerned with the phenomenon of deletion from the very beginning, and they had a major role in the statement His image, so the grammarians have alerted him and mentioned the reasons for this phenomenon and its conditions; And that Because it is attached to the doors of Arabic grammar, the omission when it enters a sentence, the syntax
It Is necessary to know what was deleted, and Its location before deletion. Because parsing is only done after understanding Meaning, deletion is the omission of one or more words or phrases, with a presumption indicating that Deleted verbally or contextually, and it is a phenomenon that is included in the different levels of language phonetically
Morphologically and grammatically, deletion is one of the methods that indicates the genius of the language in its observance For the intelligence of the addressee and his ability to understand the current style with the change that occurs to him by projection One or more of Its parts, and perhaps the most important reason .for omission among the Arabs is brevity
And the abbreviation that gives the phrase strength and spares it weight, and we find that grammarians have turned to a phenomenon
The deletion, and set rules for it based on the understanding of Arabic usage, and not just on
The arbitrary estimate, and that the correct estimate of the omissions of the grammarians must take into account two things Two basic ones: the meaning and the grammatical industry, just as ،we do not find a difference between deletion and implicitness The pronoun Is placed in the place of deletion and vice versa, and the meaning that the speech takes is yet Deletion becomes a .broader indication and more influential in the soul
Introductory words: omission, dhikr, pronoun, declension, syntax

التقديم والتأخير عند علماء المعاني .

مقدمة

يعد التقديم والتأخير متغيراً أسلوبياً في اللغة؛ لأنه عدول عن القاعدة العامة وذلك بتحويل الألفاظ عن مواقعها الأصلية لغرض يتطلبه المقام، إذ يكون هذا العدول بمثابة منبه فني يعمد إليه المبدع ليخلق صورة فنية متميزة، والتقديم والتأخير من الأساليب الأساسية التي يقوم عليها علم البلاغة العربية؛ فهو من الأركان التي يقوم عليها علم المعاني، لما له من وثيق الصلة بقصد المتكلم، وحال المخاطب، والمقام الذي يلقى فيه الكلام، وهذه هي العناصر التي يهتم بها علم المعاني في سعيه لوضع ضوابط توصل المعنى من المتكلم إلى المخاطب سليما خاليا من اللبس.

التقديم والتأخير عند علماء المعاني .

اهتم علماء البلاغة بالتقديم والتأخير كظاهرة لغوية خاصة فيما يتعلق بعلم المعاني إلا أنهم تجنبوا الحديث عن الرتبة المحفوظة؛ لأن اختلالها يؤدي إلى خلل في اللغة بسبب ثباتها وحفظها لترتيبها بينما تحدثوا عن الرتبة غير المحفوظة يقول الدكتور تمام حسان :" فإن علم المعاني يعد في هذه الحالات عالة على علم النحو، مثال ذلك أن النحاة حددوا الرتبة في الكلام وجعلوها محفوظة وغير محفوظة، وقد ارتضى علماء المعاني بهذا التقسيم وتجنبوا الكلام عن الرتبة المحفوظة لأنها ليست مظنة اختلاف الأساليب بسبب حفظها وثبات وضعها، وعمدوا إلى الرتبة غير المحفوظة فمنحوها دراسة أسلوبية مهمة تحت عنوان " التقديم والتأخير" ومعنى هذا أن التقديم والتأخير البلاغي وثيق الصلة بقرينة الرتبة في النحو، ولكنه لا يمس الرتبة المحفوظة، لأنها محفوظة لا تختلف عليها الأساليب "[١].

[١]- الأصول: تمام حسان ، صـ ٣١٠

ونجد علماء المعاني اهتموا بالتقديم والتأخير فيقف ابو هلال العسكري(ت٣٩٥ه) على أهميته فيقول: " وينبغي أن ترتّب الألفاظ ترتيبا صحيحا، فتقدّم منها ما كان يحسن تقديمه، وتؤخّر منها ما يحسن تأخيره، ولا تقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخّر منها ما يكون التقديم به أليق "[١].

ولا يرد عند ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦ه) إلا إشارة يسيرة إلى التقديم والتأخير فيقول:" ومنهم من يقدم ويؤخر: إما لضرورة وزن أو قافية وهو أعذر، وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام، ويقدر على تعقيده، وهذا هو العي بعينه "[٢]، ويشير القيرواني بهذا إلى التقديم والتأخير القبيح، الذي لا يطلبه السياق، وإنما يلجأ إليه لإظهار التعقيد والتصرف بالألفاظ دون أن يخدم المعنى، أو يضيف شيئا جديدا.

ولم يخرج ابن سنان الخفاجي بالتقديم والتأخير مخرجا جديدا، فيذكرهما ضمن الكلام في الألفاظ المؤلفة، فلا يجوز أن يكون في الكلام تقديم وتأخير يفسد المعنى وإعرابه في بعض المواضع، ويتناول بعض الأمثلة الشعرية التي وقع فيها تقديم وتأخير ففسد المعنى والإعراب، فمن ذلك قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن إسماعيل خال هشام بن عبد الملك :

ما مثله في الناس إلا مملكا ... أبو أمه حي أبوه يقاربه [٣]

---

[١]- الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ، صـ١٥١

[٢]- لعمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥،صـ ٢٦٠/١

[٣]- ديوان الفرزدق: (الكامل) جمع وتعليق /عبدالله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي، ط١، صـ ١٠٨/١

فيقول: " ففي هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه وأفسد إعرابه؛ لأن مقصوده وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه يعني هشاماً لأن أبا أمه أبو الممدوح.

أما عبد القاهر الجرجاني فقد طرح مبحث التقديم والتأخير بوصفه عنصرا أساسيا لإقامة الكلام، واستعماله على الصحة، وعلى ما ينبغي له، شأنه في ذلك شأن مباحث أخرى، كالتعريف والتنكير، والحذف، والتكرار، والإضمار والإظهار، إذ يقول " هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[١].

فالتقديم والتأخير عنده " باب من الأبواب التي تظهر بها مزية الكلام ويعلو بها أسلوب على أسلوب ويبدو بها إعجاز القرآن "[٢]، وقد حظي هذا الأسلوب عند شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني بدراسة متميزة، إذ نبه إلى مكانته في البلاغة وعزا الفضل لجمال الكلام وحسن تأثيره في المتلقي إلى جمال نظمه ووصفه بأنه " باب

---

[١]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ٨٣/٨٢

[٢]- عبد القاهر والبلاغة العربية: محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الهرم التجارية، ط٤،صـ ١٣٩

كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة "[١].

ويتضح من كلامه أن التقديم والتأخير يأتي في الكلام لعلة بلاغية، ويجعل القارئ يقف أمام عبارته تلك لينظر إلى الموضوع غير النظرة التي وجدها عند غيره من العلماء، فالتقديم والتأخير يأخذ عند عبد القاهر مكانة أسمى وبعدا آخر إذ يؤدي وظيفة مهمة في سبك الكلام وفنون التصرف فيه، وكان عبد القاهر ينظر إلى التقديم والتأخير من الوجهة التي تتفاضل فيها الفصاحة، والوجهة التي يؤتى بها لتحسين الكلام سواء أكان شعرا أم نثرا، فيقول: " ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان"[٢]

والتقديم عند عبد القاهر على نوعين: تقديم على نية التأخير" وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه "[٣]، وذلك مثل خبر المبتدأ كقولك: (منطلق زيد) والمفعول إذا قدم على الفاعل مثل (ضرب عمرا زيد) إذ أنهما لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من حكمهما الإعرابي، وتقديم لا على نية التأخير " ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له "[٤]،وذلك مثل (زيد المنطلق) و(المنطلق زيد).

---

[١]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١٠٦

[٢]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١٠٦

[٣]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١٠٦

[٤]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١٠٦

ويضع عبد القاهر أمامنا أمرا مهما في فائدة التقديم قد لا نجدها في التأخير فيقول:" فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلا على الفعل في كثير من الكلام، أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير، فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال، ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء، أن يدعي أنه للفائدة في بعضها، وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به "[١]، ويفهم من كلامه أن التقديم والتأخير في الكلام لا بد أن يأتي لفائدة تكسب الكلام حسنا وقوة، ويعيب على من ينكر فائدتهما في الكلام .

ويتحدث عبد القاهر عن الفروق في الخبر، وجواز التقديم والتأخير في الاسمين المعرفين إذ لا مبين للمبتدأ من الخبر مثل " زيد أخوك " إذ لا بد عنده من اختلاف في المعنى يسببه التقديم والتأخير فيقول:" ثم جئت بمعرفتين فجعلتهما متبدأ وخبرا فقد وجب وجوبا أن تكون مثبتا بالثاني معنى للأول، فإذا قلت:(زيد أخوك) كنت قد أثبت بـ(أخوك) معنى لزيد، وإذا قدمت وأخرت فقلت: (أخوك زيد) وجب أن تكون مثبتا بزيد معنى لآخوك، وإلا كان تسميتك له الآن مبتدأ وإذ ذاك خبرا، تغييرا للاسم عليه من غير معنى"[٢].

ويتابع الجرجاني دراسته لموضوع التقديم والتأخير معللا رأيه بالشواهد القرآنية والأبيات الشعرية، فيجعل الدارس يطمئن إلى عمق تفكيره ونفاذ بصيرته، فكل من جاء بعده اعتمد على شواهده وآرائه في كيفية الحصول على المعنى المستفاد من التقديم والتأخير، ففي قوله تعالى: " **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِن** "[٣]، يقول عبد القاهر: " بيانه أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم

---

[١]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١١٠

[٢]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ١٨٩/١٩٠

[٣]- سورة الأنعام : (من الآية:١٠٠)

"الشركاء" يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجن ولا غير الجن"[١].

وفي حديث عبد القاهر عن الاستفهام يفهم من كلامه أن ما ولي همزة الاستفهام هو المشكوك فيه، والمسؤول عنه، فيقول:" إذا قلت: أفعلت؟ ، فبدأت بالفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده "[٢]، وتكون الهمزة للتصديق[٣]، كقولك مثلا: " أجمعت النقود التي كنت تريد جمعها؟"، " أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟" ، فالشك واقع غلى الفعل الذي يلي الهمزة ويكون الجواب على ذلك بنعم أو لا، ويكون الغرض من السؤال أن تعلم وقوع الفعل أو عدم وقوعه.

ويختلف الأمر في تقديم الاسم، فإذا تقدم الاسم يكون الشك فيه، والفعل واقع لا شك فيه، يقول الإمام عبد القاهر :" أأنت بنيت هذه الدار؟"، " أأنت قلت هذا الشعر؟"، "أأنت كتبت هذا الكتاب؟ "، فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذاك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان كيف؟ وقد أشرت إلى الدار مبنية، والشعر مقولا، والكتاب مكتوبا، وإنما شككت في الفاعل من هو؟ "[٤]، فتقديم الاسم يعني أن الشك واقع على الاسم المتقدم، وتكون الهمزة حينئذ للتصور[٥]، ويكون الفعل قد وقع وأنه معلوم الثبوت ولا شك فيه، وإنما

---

[١]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ٢٨٦

[٢]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١١١

[٣]- تكون الهمزة لطلب التصديق ، إذا كان المطلوب بها ثبوت شيء لشيء، أو انتفاءه عنه، ولا يؤتى لها بمعادل لا لفظا ولا تقديرا، ويكون الجواب عنها بنعم أو لا .

[٤]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١١١

[٥]- تكون الهمزة للتصور، إذا كان المطلوب بها تعيين المسند والمسند إليه أو الحال أو المفعول أو الظرف وغير ذلك ، ويكون لها معادل بأم لفظا أو تقديرا، ويكون الجواب بتعيين المسؤول عنه، ولا وجه فيها للثبوت والانتفاء.

تريد أن تعرف فاعله أو مفعوله أو غير ذلك، ويتعين أن تكون الهمزة حينئذ للتصور، وأن يكون لها معادل مذكور أو مقدر، كقولك :" أأنت بنيت هذه الدار أم أبوك ؟" ، " أأنت قلت الشعر أم أخوك ؟" ، فالفعل في هذه الأمثلة معلوم غير مشكوك فيه، وإنما الشك في فاعله أو مفعوله، وأنت تطلب بسؤالك تعيينه .

ونجد عبد القاهر قد بحث التقديم والتأخير بين الفعل والاسم في النفي، وبين لنا الفرق بين الحالين فيقول :" إذا قلت: "ما فعلت"، كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول، وإذا قلت: "ما أنا فعلت"، كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول، تفسير ذلك: أنك إذا قلت: "ما قلت هذا"، كنت نفيت أن تكون قد قلت ذاك، كنت نوظرت في شيء لم يثبت أنه مقول؟ وإذا قلت: "ما أنا قلت هذا"، كنت نفيت أن تكون القائل له، وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول "[١].

فدخول النفي على الفعل وتأخير الاسم، يفيد نفي الفعل عن المتكلم، من دون أن يثبته لغيره، فيجوز أن يكون غيره قد فعله، ويجوز أن لا يكون أحد قد فعله، ومن الأمثلة الدالة على تقديم الفعل بعد النفي قوله تعالى: " **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ** "[٢]، والآية على لسان أخوة يوسف ـــــ عليه السلام ـــــ فقولهم : " **ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ**" يدل على أنهم نفوا الفعل عن أنفسهم، وهو المجيء للإفساد في الأرض، ولم يثبتوه لغيرهم، فيجوز أن يكون غيرهم قد جاء للإفساد، ويجوز أن لا يكون الفعل قد وقع من أصله .

ويختلف الأمر إذا تقدم الاسم وتأخر الفعل، وقد صدرت الجملة بالنفي، مثل قوله تعالى : " **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ**

---

[١]- دلائل الإعجاز: للجرجاني ،صـ ١٢٤

[٢]- سورة يوسف: (الآية ٧٣)

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ "[١]، فبين الله – سبحانه وتعالى – " أن من اتبع هداه بحقه علما وعملا، بالإقدام على ما يلزم، والاحجام عما يحرم، فإنه يصير إلى حال لا خوف فيها ولا حزن "[٢]، فنفى الله عنهم الحزن، والحزن قد وقع بغيرهم، فهم مخصوصون بنفي الحزن عنهم، مع إثباته لغيرهم .

ويستطرد عبد القاهر في دراسته للتقديم والتأخير مبينا ما يحدث من جمال في النص الأدبي، فلم يعد عنده مقصورا على نظام الجملة الواحدة بل يتعدى ذلك إلى البيت الشعري والقصيدة ففي قول الشاعر من البسيط :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا ... أنصاره بوجوه كالدنانير[٣]

يقول: " فإنك ترى هذه الاستعارة، على لطفها وغرابتها، إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد حسنت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها "[٤]، فالتقديم والتأخير قد مكن من الاستعارة في البيت الشعري وجعلها ذات مأخذ في النفس، وفي ذلك يقول عبد القاهر:" فاعمد إلى الجارين والظرف فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: "سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره"، ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة "[٥]، فالشاعر اضطر إلى التقديم والتأخير ليستقيم له

---

[١]- سورة البقرة: (الآية ٣٨)

[٢]- مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي صـ ٤٧٢/٣

[٣]- البيت من البسيط ، قائله سبع بن الخصيم التميمي، ينظر المؤتلف والمختلف ، صـ ١٦٠/١٥٩

[٤]- دلائل الإعجاز: للجرجاني ،صـ ٩٩

[٥]- دلائل الإعجاز: للجرجاني ،صـ ٩٩

المعنى، وليستقيم له إبراز الاستعارة على أجمل صورة وأبهى حسن لتتمكن من نفس السامع .

وأدخل الجرجاني موضوع التقديم والتأخير في مجال النقد، وذلك أبيات البحتري لينظر ما أحدث التقديم والتأخير والحذف والإضمار فيها حتى أعجبت السامعين:

بلونا ضـــــرائب من قــد نرى ... فمــا إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحـــــادثا ... ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل في خــلقي ســــــؤدد ... سماحا مرجى وبأسا مهيبـــــا
فكالسيف إن جئته صـــــارخا ... وكالبـــــحر إن جئته مستثيبا[١]

فقال عبد القاهر معلقا على هذه الأبيات :" فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عنــدك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعد فانظر في السبب واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدّم وأخرّ، وعرّف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكــرر، وتوخّى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها "علم النحو"، فأصاب فــي ذلــك كله، ثم لطف موضع صوابه، وأتى مأتى يوجب الفضيلة "[٢].

ونجد عبد القاهر يعترف بأسبقية سيبويه إلى معنى بناء الفعل على الاسم، فيقول: " وهذا الذي قد ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له، قد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدم فرفع بالابتداء، وبني الفعل الناصب كان له عليه، وعدي إلى ضميره فشغل به، كقولنا في "ضربت عبد الله" ، "عبد الله ضربته"، فقال: و "إنما" قلت: "عبد الله"، فنبهته له، ثم بنيت عليه الفعل، ورفعته بالابتداء"[٣].

---

[١]- ديوان البحتري: (المتقارب) صـــ ١٥١/١

[٢]- دلائل الإعجاز: للجرجاني ،صـــ ٨٥

[٣]- دلائل الإعجاز: للجرجاني ،صـــ ١٣١

ولكن الإمام عبد القاهر يأخذ على العلماء اكتفاءهم بتفسير المقدم للأهمية والاعتناء، بل لابد من تفسير هذه الأهمية وبيان سببها، ويقول الجرجاني: " وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، وبم كان أهم؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر "التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف، ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه "[١].

فعبد القاهر الجرجاني أكسب التقديم والتأخير نظرة جديدة وبعدا أسمى، وحوله من الدرس النحوي إلى الدرس البلاغي، وشمل عنده وحدة الموضوع، بعد أن كان يدرس بصورة متفرقة في كتب الذين سبقوه، أو كان ينظر إليه على أساس أنه يؤدي إلى التعقيد المعنوي للكلام .

أما الزمخشري فنظرته للتقديم والتأخير تتسم بالتأني والتعليل والتحليل الفني، فلا تكاد تمر على آية كريمة تشتمل على التقديم والتأخير إلا ويدلي برأيه فيها شارحا وموضحا، فقد تحدث عن تقديم المسند إليه ومتعلقات الفعل وغير ذلك ، وتظهر براعة الزمخشري في تقديم الصلة وتأخيرها ليستخرج المعاني المتوخاة من التقديم والتأخير ففي قوله تعالى: " **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** "[٢]، قال:" فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله :" **وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** " وقدّمت في قوله " **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** " قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه، فقيل: هو عليّ هين، وإن كان مستصعبا عندكم

---

[١]- دلائل الإعجاز : للجرجاني ،صـ ١٠٨

[٢]- سورة الروم: (الآية:٢٧)

أن يولد بين هم وعاقر، وأما هاهنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى "[١].

وتكلم الزمخشري عن تقديم الظرف وتأخيره مبينا السر البلاغي في التقديم، ففي قوله تعالى: " **ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ** "[٢]، قال " فإن قلت: فهلا قدّم الظرف على الريب، كما قدّم على الغول في قوله تعالى: " **لا فِيها غَوْلٌ** " قلت: لأنّ القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفى الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدّعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتابا آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله: **(لا فِيها غَوْلٌ)** تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي"[٣].

كما يتناول السكاكي التقديم والتأخير ضمن حديثه عن مباحث علم المعاني الذي يعرفه بأنه " تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[٤]، والتقديم والتأخير عنده هو" عبارة عن حلقة واحدة ضمن سلسلة الحديث عن اعتبارات المسند إليه، وكذلك عند الحديث عن اعتبارات المسند ومتعلقاته، في محاولة منه لتقنين الأحوال التي يأتي عليها كل ركن من ركني الإسناد الخبري "[٥].

---

[١]- الكشاف :للزمخشري، صـ ٤٧٦/٣

[٢]- سورة البقرة : (الآية: ٢)

[٣]- الكشاف : للزمخشري، صـ ٣٤/١

[٤]- مفتاح العلوم : السكاكي، ١٦١

[٥]- إشكالية التقديم والتأخير في الدرس البلاغي التراثي: د/فاطمة البريكي،(بحث) مجلة جامعة الملك سعود، ١٤٢٩ه ٢٠٠٨م، ،صـ ٢٧٣

ونجد السكاكي يأخذ برأي سيبويه في التقديم فيقول:" والحالة المقتضية هي كونه العناية بما يقدم أتم وإيراده في الذكر أهم، والعناية التامة بتقديم ما يقدم "[١]، فالعناية هي الغرض البلاغي للتقديم عند السكاكي، وعلى هذا الأساس يقسم التقديم للعناية إلى قسمين :

أحدهما: أن يكون أصل الكلام في ذلك هو التقديم ولا يكون في مقتضى الحال ما يدعو على العدول عنه، كالمبتدأ، فإن أصله التقديم على الخبر، نحو: "زيد عارف"، وكالعامل فأصله التقدم على معموله نحو:" عرف زيد عمراً، وكان زيد عارفا، والفاعل فأصله التقدم على المفعولات وما يشبهها من الحال والتمييز، وكالذي يكون في حكم المبتدأ من مفعولي علمت نحو:" علمت زيدا منطلقاً " وكالتوابع فأصلها أن تذكر مع المتبوع فلا يقدم عليها.

وثانيهما: أن تكون العناية بتقديمه والاهتمام بشأنه [٢].

كما التفت السكاكي أيضا إلى المقاصد والمقامات في بعض الحالات التي ذكر أنها تقتضي تقديم المسند إليه، مثل قوله : أن يكون المسند إليه صالحا للتفاؤل، فيقدم للسامع ليسره، مثل: سعيد بن سعيد في دار فلان، أو أن يكون صالحا للتشاؤم، فيقدم أولا للسامع ليسوءه، مثل : سفاك بن الجراح في دار صديقك، أو لأن تقديمه ينبئ عن التعظيم والمقام يقتضي ذلك [٣]، والتفات السكاكي هنا إلى دور المقام في ترتيب عناصر الكلام واضح .

كما ذكر الحالات التي تقتضي تقديم المسند وتأخير المسند إليه، وهي ان يكون متضمنا للاستفهام كنحو كيف زيد وأين عمرو، أو أن يكون المراد تخصيصه بالمسند

---

[١]- مفتاح العلوم : السكاكي، صـ ٢٣٦

[٢]- مفتاح العلوم : السكاكي، صـ ٢٣٦

[٣]- ينظر: مفتاح العلوم ، السكاكي، صـ ١٩٥

إليه كقوله تعالى: " **لكم دينكم ولي دين**" ، أو أن يكون المراد التنبيه على أنه خبر لا نعت ، أو لأنه صالح للتفاؤل، أو أن يكون المراد بتقديمه نوع تشويق على ذكر المسند كقوله من البسيط :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها... شمس الضحى وأبو اسحق والقمر[١]

ويتضح أن هذه الحالات تراعي في معظمها المقاصد والمقامات، وعلى الرغم من أن الأمثلة التي ذكرها في الأغراض البلاغية لتقديم المسند إليه على المسند جاءت جملا اسمية، إلا أن ترتيب ركني الإسناد فيها قابل للتغيير تقديما وتأخيرا، لعدم وجود موانع تتعلق بالصنعة النحوية تحول دون ذلك .

أما ابن الأثير فيرى أن مبحث التقديم والتأخير" باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة،... وهو ضربان: الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى، والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى "[٢].

وينقسم الضرب الأول إلى قسمين:

أ) قسم يكون التقديم فيه أبلغ، ومن أمثلته: تقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ.

---

[١]- ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، صـ ٢١٩، ٢٢١، البيت لمحمد بن وهيب الحميري، وهو شاعر من أهل بغداد، وقال هذا البيت في المعتصم، انظر: كتاب الأغاني للأصفهاني، صـ ٥٢/١٩

[٢]- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت، صـ٣٥/٢

ب) قسم يكون التأخير فيه أبلغ، ومن أمثلته: تقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف، وتقديم الصلة على الموصول، فمن هذا القسم قول الشاعر من المنسرح:

فأصبحت بعد خطّ بهجتها ... كأنّ قفرا رسومها قلما [١]

إنه قدم خبر كأنّ عليها وهو قوله «خطّ» ؛ وهذا مما لا يجوز القياس عليه، والأصل في هذا البيت: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خطّ رسومها، والمعاظلة في هذا الباب تتفاوت درجاتها في القبح، وهذا البيت المشار إليه من أقبحها؛ لأن معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضا [٢].

أما الضرب الثاني الذي ذكره ابن الأثير أنه يتوجه إلى المعاني لا إلى الرتب النحوية وهذا يعني أنه لا يمكن إخضاعه لقاعدة محددة؛ لأنه يختلف من شخص لآخر، إذ يعبر عن أولويات كل متكلم، وطريقة ترتيبه لمعني كلامه، ولا يمكن الحكم عليه بأنه أكثر بلاغة في حالة، وأقل بلاغة في حالة أخرى، إذ لا علاقة له بالبعد النحوي الذي لا يتأثر بهذا النوع من التقديم والتأخير، ولا يؤثر فيه، ولذلك قال ابن الأثير إن التقديم والتأخير في مثل هذا النوع لا يغير المعنى[٣].

ومن المعلوم أن البلاغة تستند إلى الأساس النحوي ولا تنفصل عنه، وتعد سلامة الأساس النحوي واستقامته شرطا واجب التحقق لإقامة الدرس البلاغي؛ لأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم، وهو تآخي معاني النحو فيما بين الكلم، على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام [٤].

---

[١]- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق:د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، صـ ٣٨

[٢]- ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، صـ ٤١/٢

[٣]- إشكالية التقديم والتأخير في الدرس البلاغي التراثي: د/فاطمة البريكي، صـ ٢٨٢

[٤]- ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، صـ ٤١ ،٤٤

الخاتمة :

ويمكن القول بأن الجملة قد تخرج – لا سيما في اللغة الفنية – عن النمط التركيبي، وذلك بأن تتبادل عناصرها المواقع فيما بينها، فيتقدم ما حقه التأخير، ويتأخر ما حقه التقديم، وهذا الخروج هو إحدى الظواهر الفنية التي تثير تأمل دارسي اللغة من النقاد وعلماء المعاني بحثا عما يتجسد فيها ويكمن خلفها من أغراض فنية، فإذا كان النحوي يقف أمام تلك الظاهرة بالرصد والتسجيل وبيان الأسباب النحوية للتقديم والتأخير، فإن البلاغي يتخطى هذا الجانب باحثا عما يشعه هذا الأسلوب من معان، وما يرتبط به من دلالات ويكون لها أثرها في فنية التعبير وجماله [١].

وترتبط بلاغة التقديم والتأخير بأثرهما الفني في المعنى، أي إن أسلوب التقديم والتأخير لا تكون له قيمته الفنية إلا إذا وظفه الشاعر أو الأديب في تجسيد أغراض فنية خاصة لا تتأدي بغير ذلك الأسلوب، ومن ثم كان الحكم بجودة ذلك الأسلوب يقترن لدى البلاغيين ببيان غرضه الفني أو وظيفته التعبيرية الخاصة، وكان نقدهم اللاذع الموجه إلى ذلك الأسلوب نفسه حين يفتقد تلك الوظيفة، أي حينما يكون مجرد تكلف لا رصيد له في المعنى؛ لأنه حينئذ لا يكون وسيلة من وسائل التعبير بل ضربا من ضروب التعمية والتعقيد .

[١]- ينظر: علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم، د/ حسن طبل ، صـ ١٣٣

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- إشكالية التقديم والتأخير في الدرس البلاغي التراثي: د/فاطمة البريكي،(بحث) مجلة جامعة الملك سعود، ١٤٢٩ه ٢٠٠٨م.

- الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: د/تمام حسان، عالم الكتب، ط ١٤٢٠ه،٢٠٠٠م .

- الإيضاح في علوم البلاغة: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني، تح: محمد عبد المنعم خفاجي: دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة.

- الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ .

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر– بيروت.

- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت .

– دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تح/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م .

– ديوان البحتري: الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري ،تح/حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف – مصر ،الطبعة الثالثة .

– ديوان الفرزدق: (الكامل) جمع وتعليق /عبدالله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي، ط١.

–عبد القاهر والبلاغة العربية : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الهرم التجارية، ط٤.

–علم المعاني في الموروث البلاغي: د/حسن طبل، مكتبة الإيمان، الطبعة الثانية ١٤٢٥ه ،٢٠٠٤م.

– مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي .

– مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تعليق: نعيم زرزور، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.